الفصل السابع

حركة صحافة الجمهور وإشكالاتها

بقلم : مايكل شودسون

من السهل أن تقرأ مجلدات عن النظرية السياسية، والفلسفة السياسية، والعلوم السياسية، دون أن تجد أكثر من ذكر عابر لوسائل الإعلام. لا ينطبق هذا فقط على الأكاديمية المعاصرة، بل أيضًا على معظم الفكر السياسى عبر العصور، بما فى ذلك معظم الأدبيات عن الديموقراطية النيابية. «الأوراق الفيدرالية» التى تعتبر - بصفة عامة - أرسخ إسهام للدولة فى الفكر السياسى، لم تقل أبدًا - أى شىء - عن الصحافة. فى الخمسة وثمانين مقالاً التى كتبها چيمس ماديسون، وألكساندر هاميلتون، وچون چاى، والتى نشرت جميعها أصلاً فى صحف نيويورك. فى عامى ١٧٨٧، و١٧٨٨م، ظهرت تعبيرات «صحيفة» أو «صحف» أو «صحافة» أربع مرات فقط، ودائمًا بطريقة عرضية.

أفرخ التعديل الأول مجموعة معرفية مهمة من المناقشات النظرية فى القانون الدستورى، وكتب چون ستيوارت ميل عن حرية الصحافة، لكن المنظرون السياسيون عامة كتبوا القليل عن الصحافة والصحفيين، وفى المقابل، باستثناء والترليپمان (وفى الوقت الحاضر چورج ويل) قام الصحفيون بتجاهل النظرية

أريد أن أذكر بالشكر والعرفان نقدا دقيقا لمسوَّدة سابقة قدمها تيودور جلاسبر وچاى روزين، واللذان لا يشارك أى منهما بالضرورة فى الأفكار المنشورة هنا. هذه الدراسة استُخلصت من دراسة سابقة، «ما الذى تعرفه صحافة الجمهور عن الصحافة وما الذى لا تعرفه عن الجمهور ؟» فى عمل تيودور جلاسبر كمحرر «فكرة صحافة الجمهور» (نيويورك : مطبعة جويلفورد، سوف يصدر فى وقت لاحق).

السياسية. عبر النصف الثانى من القرن الماضى، عندما غاب عن الحياة الصحفية ركنها الأساسى ـ التنافس ـ ظلت وجهات نظر الصحفيين عن الدور السليم وأداء أخبار وسائل الإعلام فى دولة ديموقراطية، هادئة ومستقرة[1]. بينما كان دور «المواطن المطلع» باعتبار أنه أساس الحياة الديموقراطية، موضوع تساؤل جاد فى العلوم السياسية، مع التحدى العنيف لمفهوم الرأى العام، وما يجب أن يكونه، مضى الصحفيون كما لو أن مسئوليتهم عن إعلام الجمهور قد حُفرت فى الصخور[2].

وهكذا، كان مدهشًا أن نرى فى السنوات العشر الماضية، وخاصة فى الخمس الماضية، ظهور حركة بين الصحفيين، بحثت سريعًا ووجدت أرضية نظرية وقدمت أعظم تحديًا جادًا منذ الستينيات لرجعية الصحافة. هذه الحركة أطلقت على نفسها اسم «صحافة الجمهور» أو «الصحافة المدنية»، وأحيانًا «صحافة مرتبطة بالمجتمع».. يمكن رؤيتها منذ عام ١٩٨٨م، فى تفاعلها مع حملة انتخابات الرئاسة فى ذلك العام وتغطيتها، عندما ألح رئيس تحرير «ويشيتا إيجيل»، ديفيز ميريت، على عقد «اتفاق جديد بين المرشحين والصحفيين الذين سوف يركزون على القضايا التى يهتم بها المواطنون، أكثر مما يريد السياسيون أن يتحدثوا عنه».

بحلول عام ١٩٩٠م، كاتب العمود، داڤيد برودر، فى واشنطن پوست، ألح على زملائه الصحفيين أن يصبحوا «فعالين... لصالح عملية الحكومة الذاتية». رئيس مؤسسة الفرسان، چيمس باتين، ألح على الصحف أن تبذل جهدًا أكبر «لإعادة الحيوية لمجتمعاتنا[3]». عام ١٩٩٣م، قام معهد پوينتار لدراسة وسائل الإعلام بنشر كُتيب، ألفه باتين بالاشتراك مع أستاذ جامعة نيويورك، چاى روزين، الذى كان أول من استخدم تعبير «صحافة الجمهور»[4]. بعد ذلك بقليل، قامت مؤسسة كيترنج، وجامعة نيويورك، ومعهد الصحافة الأمريكى، بمساندة من مؤسسة فرسان چون إس، وچيمس إل، بتأسيس «مشروع الحياة العامة والصحافة».

بعدها بسنة، فى عام ١٩٩٤م، أقامت أمانة پيو الخيرية مركز پيو للصحافة المدنية.

عن الحياة العامة والصحافة. بعد ذلك بعام، فى ١٩٩٤م، قامت مؤسسة پير للرعاية الخيرية بإقامة مركز پيو للصحافة المدنية.

الحركة، التى ساعدت هذه المشروعات على تنظيمها وتعزيزها، لفتت الأنظار

العامة إلى وسائل الإعلام، عندما قام چيمس فالو بتعزيز هجومه النارى على الصحافة التقليدية فى عملية «تفتيت الأخبار»، عام ١٩٩٦م[٥]. جميع هذه الجهود فى صحافة الجمهور، من غرفة الأخبار إلى مؤسسات ومدارس الصحافة، كانت تنشد إيقاظ الصحفيين إلى وظيفتهم الديموقراطية المهمة فى المساعدة على جعل الحوار العام الديموقراطى أمرًا ممكنًا.

تزعم صحافة الجمهور أنها تقدم نموذجًا جديدًا مهمًا للكيفية التى يستطيع بها الصحفيون ـ ويجب عليهم ـ أن يسهموا به فى الديموقراطية. چاى روزين، أكثر المدافعين عن الحركة بلاغة، جادل على أن الصحافة لا يمكن لها بعد ذلك أن تهدف فقط إلى إعلام الجمهور ـ لأن الجمهور قد لا يكون هناك [٦]. افتراض الصحافة التقليدية هو أن الجمهور موجود فعلاً فيه تساهل لإرضاء النفس. الصحافة يجب أن تعمل على «تكوين» جمهور بقدر ما تعمل على «إعلامه». بالنسبة لروزين، «الصحافة التقليدية تفترض أن الديموقراطية هى ما لدينا، وأن المعلومات هى ما نحتاج إليها. فى صحافة الجمهور، نحن نعتقد أن العكس هو الصحيح غالبًا: المعلومات هى ما لدينا ـ نحن نعيش فى بحر من المعلومات ـ بينما الديموقراطية هى ما نحتاج إليها»[٧].

أولئك الذين نظموا أنفسهم خلف صحافة الجمهور يجادلون على أن وسائل الإعلام، يجب أن تكون أكثر فعالية فى جعل عامة الناس أكثر اهتمامًا بالأخبار المطبوعة والمذاعة. فى صحافة الجمهور، مندوب أخبار الشرطة، مثلاً، ليس بائعًا متجولاً لمعلومة جديدة، يتاجر بخبرته أو خبرتها عن الجريمة، وإجراءات الشرطة، واعتمادًا على مصادر مطلعة أو علاقات عامة جيدة مع المسئولين عن عدالة الجريمة. بدلاً من ذلك، يجب على مندوب أخبار الشرطة أن «يهدف إلى أن يجعل الشرطة، والمشرفين عليها، وضحايا الجريمة، والمجرمين أيضًا، وأهل الجوار فى أى مدينة، يتشاركون معًا فى حوار بناء حول الجريمة»، ما له أهمية هو، كما كتب آرثر تشاريتى، ليس «سجل الشرطة» وإنما هو «برنامج الجمهور»[٨]. مندوب الأخبار فى نموذج صحافة الجمهور هو، إذن، ليس الخبير فى شئون الشرطة أو شئون الجريمة، بل هو من يهتم بما تفكر فيه أى دائرة من دوائر المجتمع بشأن القضية التى على المحك.

فى جميع أنحاء الدولة، اعتنق الصحفيون، والمحررون، والناشرون، ومديرو الأخبار فكرة صحافة الجمهور وحاولوا تطبيقها فى غرفة الأخبار. صحف تشارلوت أو بزيرڤار (شمال كارولينا)، ويشيتا إيجيل (كانساس)، ودايتون ديلى نيوز (أوهايو)، وبسكونسين ستيت چورنال (ماديسون ـ ويسكونسين)، وڤيرچينيان ـ پايلوت (نورفولك، ڤيرچينيا)، وأورانج كونتى ريجيستر (كاليفورنيا)، وكيپ كود تايمز (ماساشوستس). وتالاهاسى ديموقراط (فلوريدا)، وكثير من الصحف الأخرى، حاولت تطبيق هذا النمط الجديد للصحافة، أحيانا بالتعاون مع الجمهور المحلى أو محطات التليفزيون التجارية.

أدت تجاربهم فى أن تصبح الصحافة حافزاً نشيطًا لحوار المجتمع، أدى ذلك لإثارة نقد شديد للممارسات الصحفية فى جيل كامل ساعدوا بذلك على إشعال أفضل حركة صحفية اجتماعية، فى تاريخ الصحافة الأمريكية. صحافة الجمهور هى حركة إصلاح محافظة ضمن تقاليد الإصلاحات الاجتماعية الأمريكية فى عصر التقدم. وهكذا، هى تتحدث بصوت عال عن «الجمهور»، ولكنها تتحدث عن نفسها كمجموعة مهنية دون أن تتحدى سلطة هذه المجموعة. بالإضافة إلى أنَّ صحافة الجمهور تشارك قنوات اتصال الفكر السياسى المعاصر. مثل الأصوات الأخرى فى تقاليد الاتصال، أثبتت أنها أفضل كثيراً فى إدراك حدود التحرر (الليبرالية) أكثر من الفهم الحقيقى لأى «من المجتمع» أو الحياة العامة.

نماذج الصحافة فى الديموقراطية

فى تاريخ أمريكا، كان يوجد ثلاثة نماذج للصحافة فى دولة ديموقراطية : نموذج صحافة السوق (الصحفيون يخدمون الجمهور بتقديم أى ما يطلبه الجمهور)، ونموذج صحافة الرأى (الصحفيون يخدمون الجمهور باعتبارهم وكالة تنقل إليهم رؤى الحزب السياسى)، ونموذج صحافة الوصى (الصحفيون يقدمون الأخبار التى يعتقدون أن المواطنين يجب أن يحصلوا عليها لكى يصبحوا مشاركين مطلعين فى الديموقراطية). سوف أناقش بإيجاز كل من هذه النماذج ثم أشرح صحافة الجمهور باعتبارها نمط معدل لنموذج الوصى.

فى نموذج صحافة السوق، يجب على الصحفيين أن يُسعدوا جماهيرهم أو على

الأقل، الجماهير التى يرى المعلنون أنها جذابة. مهما يكن ما يطلبه المشاهدون، أصدقاء المعلن، يجب أن يحصلوا عليه. حاجة المستهلك هى العامل الحاسم فى إنتاج الأخبار. أيديولوچيو نموذج السوق قد يتحدثون عن الديموقراطية، أو على الأقل عن سيادة المستهلك، ولكنهم لا يعنون ما يقولون: المستهلك سيد فقط طالما رضى بأن يختار من بين الاختيارات المتاحة فى السوق، وأفضلياته مقدرة على المدى القصير فقط، والمستهلك الذى لديه مال أكثر، له القول الفصل.

نموذج صحافة السوق مكروه لدى الصحفيين، قد يستخدمونه أحيانًا للاعتذار عما فعلوا، أو ليشرحوا السبب فى أن أفضل جهودهم كثيرًا ما فشلت، ولكنهم لم يشيروا إليه أبدًا على أنه مثالى. إنه نموذج صالح لمكاتب الأعمال، وليس لغرفة الأخبار. هذا ما أعطاه نفوذًا قويًا، مثلاً، أنه يسيطر تمامًا على أخبار التليفزيون المحلى، ولكنه نموذج يخشاه ويبغضه كل صحفى يحترم نفسه.

فى نموذج صحافة الرأى، يجب على الصحفيين أن يقدموا الأخبار من وجهة نظر حزب سياسى، أو أى جماعة أخرى لها فكرة تناضل من أجلها ـ الهدف من جمع الأخبار هو تعزيز الحزب. الصحافة هنا ثانوية أو فرعية تابعة للحزب، عوضًا عن أن تكون مؤسسة أعمال لها استقلال ذاتى. صحفيو نموذج صحافة الرأى كثيرًا ما كانوا صحفيين حزبيين، ولكنهم أيضًا يمثلون الحركات الاجتماعية (مثل صحافة إلغاء العبودية)، والكنائس، والمصالح الأخرى والجماعات. صحف الأعراق، والجماعات، ومجلات الرأى، ومئات من رسائل الأخبار تعمل الآن طبقا لنموذج الرأى. صحافة الحزب لا زالت مألوفة فى أوروبا، وأمريكا اللاتينية، وفى كل أنحاء العالم، ولكنها اختفت فى أمريكا، من صحافة التوزيع العام.

لم يكن هذا هو الوضع دائمًا، ساد نموذج الرأى الصحافة الأمريكية منذ تأسيس صحافة چيفيرسون المعارضة فى التسعينيات من القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن العشرين[٩]. بالرغم من أسس ولاء الآباء لنظرية سياسية، تعتبر الأحزاب، والفئات، والاتحادات الموجهة سياسيًا، خطرًا على حكومة الجمهورية، ظهرت بوادر حزبية فى التسعينيات من القرن الثامن عشر، كانت للصحف فيها كيانات محورية تعزز وتنشر وجهات نظرها المختلفة. مع حلول الوقت الذى برزت فيه

الأحزاب السياسية الجماهيرية فى عهد چاكسون، أصبحت صحف الحزب راسخة تمامًا كوكالات محورية لتنظيم الحزب، ودعايته. سادت «صحافة الحزب» الصحافة الأمريكية إلى نهاية القرن التاسع عشر، وآثار أقدام صحافة الحزب لا زالت باقية حتى يومنا هذا. ولكن، نادرًا ما يلح أى إنسان على عودة صحافة الحزب. نموذج صحافة الرأى، رغم طول خدمته للديموقراطية الأمريكية، يرقد الآن فى ركام مهملات التاريخ بالنسبة لتوزيع وسائل الإعلام المعاصرة.

فى نموذج صحافة الوصى أو القيِّم، يجب على الصحفيين أن يقدموا الأخبار طبقًا لما يعتقدون هم، كمجموعة مهنية، ما يجب أن يعرفه الجمهور. ملاحقة الصحفى المحترف للحقيقة والعدالة، وممارسة الحكم السليم الحساس طبقًا لمعايير حكم بها زملاؤه أو زملاؤها، تملى عليه ما الذى يجب أن يكون أخبارًا. الصحفيون ـ عادة ـ يتقبلون نموذج الوصى كبديل وحيد لصحافة يحركها السوق. الصحافة تفهم على أنها معركة مستمرة بين رجال سيئين يتمسكون بأخبار نموذج السوق، وبين رجال طيبين يتمسكون بأخبار نموذج الوصى، والصحفيون المحترفون المخلصون هم الذين يقولون الحق للقوة، ويلاحقون الرواية إلى حيث تقودهم.

فى هذا النموذج، يتخيل الصحفيون أن الإنسان العادى كثيرًا ما يكون دائم المشغولية والتشتت لكى يكون مواطنًا نشيطًا؛ ولذلك، يقوم المواطنون بائتمان الصحفيين على قدر من حريتهم، تمامًا كما يقوم الناس بائتمان الأطباء ـ بقدر من ـ السيطرة ـ على أجسادهم. الصحفيون هم محترفون يحملون المواطنة أمانة لنا، ونحن نعتمد على خبرتهم السياسية عندما نحتاج إلى معلومات عن حالة الدولة.

رسخ نموذج صحافة الوصى التزامه بالتقرير قبل التعليق فى أواخر القرن التاسع عشر، والتزامها بأيديولوچية الموضوعية، وبأعراف وأخلاقيات المهنة، ومبادئ خدمة عامة نزيهة، فى العشرينيات من القرن العشرين. سادت هذه الآراء تمامًا فى الخمسينيات من القرن العشرين وتغيرت فى الستينيات مع تغطية حرب ڤيتنام، وفى أوائل السبعينيات مع تغطية ووترجيت. فى الحقيقة، إنجازات الصحافة فى ڤيتنام و«وترجيت» كانت جزءًا من عدوان على استقلالية المهنة فى نموذج الوصى. فرضية أن الصحفيين كانوا ـ أو يمكن أن يكونوا ـ محترفين محايدين يخدمون كأوصياء لصالح الجمهور، تضاءلت كثيرًا فى فترة حرب ڤيتنام. الصحفيون فى الميدان قد

يكونون قالوا الحقيقة للقوة، ولكن الصحفيين فى واشنطن كثيراً ما تقبلوا القوة على أنها الحقيقة. داخل الصحافة، ظهرت «صحافة جديدة»، دخول صوت شخصى فى الكتابة، وصحف بديلة، فرق تغطية بحثية، وتطورات أخرى، هدفت إلى تحرير نمط متجمد من التغطية، أعطى ثقته بسذاجة شديدة لتصريحات مسئولى الحكومة.

قامت جريدة واشنطن بوست بتغطية شرسة لواقعة التجسس عام ١٩٧٢م على مقر الحزب الديموقراطى بواشنطون حول وترجيت، والتغطية اللاحقة التى قام بها الرئيس ريتشارد نيكسون. كانت هذه الشراسة جزءاً من رد الفعل على التهاون فى «الموضوعية» المهنية. من المسلم به عامة أنه إذا كانت الهيئة الموقرة للسياسة القومية فى الواشنطن بوست هى التى تولت مسألة وترجيت، بدلاً من المراسلين الطموحين غير المعروفين، لذبلت المسألة. قد يكون الصحفيون وثقوا أكثر من اللازم فيمن لديهم من «مصادر موثوق بها»، وتغاضوا عن الانحرافات، واستخدموا ذكاءهم الفطرى فى استبعاد احتمال أن يتورط مسئولون كبار فى البيت الأبيض، خطة سيئة تافهة مثل اقتحام وترجيت.

فى السبعينيات من القرن العشرين ـ خارج الصحافة ـ بدأ الأكاديميون يتساءلون عن فكرة الموضوعية نفسها. علماء الاجتماع رأوا أنها «شعائر استراتيجية دفاعية». علماء العلوم السياسية رأوا أن جمع الأخبار هو «هدير روتينيات بيروقراطية» بدلاً من أن تكون ممارسات مهنية فاضلة[١٠]. سلطة المعرفة المهنية ـ التى يطلق عليها الآن تعبير «حوار» مهنى ـ كانت تتعرض للهجوم. كانت الصحافة الجماعة هى المهنية الوحيدة التى كانت سلطتها تتعرض للتحدى فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. النقاد، داخل الصحافة وخارجها، اتفقوا أن الصحفيين، مثل أى مجموعة مهنية أخرى، يمكن أن يمثلوا مؤامرة ضد الجمهور.

نقد الصحافة التقليدية غيَّر الصحافة. أصبحت الأخبار أكثر إمتاعًا، وأكثر تحليلاً، ونعمة مختلطة خالية من الأوهام. النقاد هاجموا الصحفيين ثانية فى الثمانينيات من القرن العشرين لوقوعهم تحت نفوذ الرئيس رونالد ريجان، «أعظم من يقومون بالاتصال»، وأيضًا بعد انتخابات عام ١٩٨٨م، لخضوعهم لاستراتيجية حملة جورج بوش وتلميحاتها العنصرية (إعلانات ويلى هورتون)،

وتلويحه بالعلم. فى الوقت نفسه، مع الانخفاض المتزايد لمعدل قراءة الصحف، خاصة بين الشباب، امتلأ عمل الأخبار بالريبة ـ الذاتية وإحساس متزايد بالأزمة. عندما سألت أحد المحررين عما جعله يروج صحافة الجمهور؟ أجاب «الخوف». رغم استمرار ربحية مؤسسات الأخبار، وشهرة البارزين ممن يمارسونها، فتح الخوف والقلق الأبواب أمام التجديد.

تختلف صحافة الجمهور عن صحافة الوصاية. من الذى يقرر ما الأخبار ؟ فى صحافة الجمهور، مثل ما فى صحافة الوصاية عامة، الإجابة هى : الصحفيون أنفسهم، لا السوق، ولا الحزب. يبدو مؤيدو صحافة الجمهور ـ أحيانا ـ كما لو أنهم يقصدون تقوية أهمية الجمهور بالنسبة للصحفيين. بعض من صفوة الصحفيين أجابوا على هذا بهستيرية، كما لو أن الغوغاء، أو على الأقل، مستطلعى الرأى وجماعات التركيز، قد تم استدعاؤهم إلى غرفة الأخبار (كما لو أنهم لم يكونوا فعلاً هناك). «عندما بدأ الصحفيون يعملون مثل الجرسونات، يتلقون الأوامر من الجمهور ومن مستطلعى الرأى، لم تكن النتائج لطيفة»، أكد داڤيد ريمنيك على هذا فى مجلة نيويوركار. ولكن صحافة الجمهور لم تُبعد سيطرة الصحفيين على الأخبار(١١).

بالنسبة لهذا الأمر، لم تقترح صحافة الجمهور، كحركة إصلاح شديدة التحفظ أى مسئولية جديدة على وسائل الإعلام. ولم تقترح على وسائل الإعلام مجلس مراجعة مدنى أو مجلس أخبار قومى. ولم توص بناشرين أو رؤساء تحرير ينتخبهم الجمهور. ولم تقترح أن تصبح الصحافة مسئولة، رسميا أو بطريقة غير رسمية، أمام أى جهاز حكومى أو مجتمعى. ولم تستعر من السويد اقتراح وجوب قيام الحكومة بدعم مؤسسات الأخبار التى توسع تنوع وجهات النظر المتاحة لجمهور القرّاء. ولم تقترح مؤسسات أخبار غير ربحية (مثل إذاعة الخدمة العامة) أو مؤسسات أخبار خالية من الإعلانات (مثل مجلة MS).

صحافة الجمهور، فى كلمات أخرى، تقف بالقرب من تقديم نموذج رابع، لا تعتمد القوة فيه على السوق، ولا على الحزب، ولا على الصحفى، بل تعتمد فقط على الجمهور. لا شىء فى صحافة الجمهور تبعد القوة عن الصحفيين أو عن المؤسسات التى يعملون بها. هناك وسائل تمنح الجمهور قوة أكبر فى الصحافة.

وهناك وسائل تجعل الممارسة الصحفية ديموقراطية. مثلاً، حركة الأقليات والنساء لترويج التنوع فى غرفة الأخبار، هى نوع من التحول الديموقراطى ووسيلة جادة لتقوية عناصر الجمهور الضعيفة بتمثيلها من خلال شخص بين الصحفيين. ومع ذلك، فإن هذا لا يجعل الصحافة مسئولة مباشرة أمام الجمهور. مؤسسات أخرى قد تكون مسئولة. محقق الأحداث يدين بالولاء للجمهور بقدر ولائه لمؤسسة الأخبار. نقاد وسائل الإعلام وصحفيوها، يأخذون على مؤسساتهم هدوءها المهنى. مجالس الأخبار المحلية والقومية، عديمة الشعبية دائمًا بين الصحفيين، أضفت الشرعية على نقد المجتمع للصحافة. مؤسسات الأخبار التى يملكها الجمهور (العامة)، مثل مؤسسة «بى. بى. إس» ومحطاتها الفرعية، مسئولة أمام مجالس إدارة تمثل الجمهور، وهى شديدة الحساسية لنقد الجمهور بطريقة لا تشعر بها مؤسسات الأخبار الخاصة.

هذه هى جميع السبل التى يمكن أن يظهر بها نموذج «الطريق الرابع»، ولكن ذلك يخالف ما تقترحه صحافة الجمهور. صحافة الجمهور بدأت داخل نموذج الوصى. إنها تطلب من الصحفيين إعادة ـ تخيل عملهم باعتبار أنه ليس إعلام الجمهور، وإنما هو إثارة مداولة ونقاش ديموقراطى. عالم الاتصال، دانيال هالين قالها بهذا الأسلوب «الصحفيون يحتاجون إلى التحرر من فهم دورهم إنه وساطة بين السلطات السياسية وبين عامة الجمهور، إلى التفكير فى أن دورهم أيضًا مهمة فتح نقاش سياسى فى مجتمع مدنى... قد يكون هذا هو الوقت الذى يقوم فيه الصحفيون بالانضمام إلى مجتمع مدنى، وأن يبدأوا فى الحديث مع قرائهم ومشاهديهم كمواطن مع الآخر، بدلاً من خبراء يدعون أنهم فوق السياسة» (١٢).

تحض صحافة الجمهور الصحفيين أن يضعوا المواطنين فى المقام الأول، وأن يجلبوا أصواتًا جديدة إلى الصحف، وأن يشتركوا فى مهمة إعداد برنامج الأخبار مع أفراد وجماعات من المجتمع. الدور الرئيسى لصحافة الجمهور هو تذكير الصحفيين أن يشركوا الجمهور مباشرة فى أعمالهم. بعض مؤسسات الأخبار الآن «تتطلب من كل إنسان فى غرفة الأخبار أن يتحدث كل أسبوع مع عشرة من الأشخاص ممن لا يتحدثون معهم عادة» (١٣). التحدث مع أشخاص أكثر فى المجتمعات التى تخدمها مؤسسة الأخبار (ليس فقط أولئك الذين نتوقعهم)، والاستماع الأفضل لاهتماماتهم، هو جزء رئيسى من برنامج صحافة الجمهور.

ومع ذلك، تظل السلطة حول ما يكتب وما يطبع، باقية مع المهنيين. هذا لم يوقف اشمئزاز الصحفيين التقليديين مما بدا لهم أنه تعصب دينى للحركة[١٤]. ولم يمنعهم من أن يُوسموا صحافة الجمهور بأنها تهديد خطير لكل ما هو عزيز عليهم. هاويل رينز، محرر الصفحة الرئيسية لجريدة نيويورك تايمز قال إن صحافة الجمهور «سامة لقيم غرفة الأخبار»[١٥]. الصحفيون فى صحافة الجمهور واجهوا السخرية والنقد القاسى داخل غرفة أخبارهم. هل كانت صحافة الجمهور عدوانًا جذريًا على أفضل تقاليد الصحافة المهنية المستقلة ؟

صحافة الجمهور كإصلاح محافظ

صحافة الجمهور، مثل إصلاحات عصر التقدم من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى زمن الحرب العالمية الأولى، عززت مزيجًا متماسكًا من تقوية الشعب وائتمان الصفوة والخبراء على مسئولية الجمهور. أيد التقدميون المبادرة والاستفتاء، التى أعطت القوة للشعب، وإلى حكومة إدارة المدينة، التى حولت القوة إلى المتخصصين. امتدح التقدميون الانتخابات الأولية المباشرة التى أعطت القوة إلى الشعب، ووظائف الخدمة العامة إلى المتعلمين المؤهلين. . هذه الإصلاحات، الشعبية وعلى مستوى الصفوة، اشتركت فى كراهية الأحزاب السياسية والحزبية التقليدية. وتشاركت أيضًا فيما يشبه التأكيد الأخلاقى لصحافة الجمهور على العملية الإجرائية: نطالب بالديموقراطية ولا نطالب بحلول سياسية معينة.

إصلاحات عصر التقدم، مثل صحافة الجمهور، وحَّدها نموذج مثالى لمواطن عاقل مطلع. فكرة المواطنة المطلعة، كما أوضحها حديثًا، ريتشارد براون، تعود إلى القرن الثامن عشر. ولكن أيضًا، كما أشار براون، أنها كانت فكرة «غير منطقية» فى المستعمرات الأمريكية، وانتهى إلى أن «الدرس الحقيقى» فى سجل التاريخ هو أنه «لم يحقق أبدًا أى معنى دقيق لفكرة المواطنة المطلعة»[١٦]. براون أنهى روايته عام ١٨٧٠م، ولكن التغيير الكبير حدث فى منتصف القرن التالى. منذ اقتراع الدولة المطبوع الذى تمَّ فى التسعينيات من القرن التاسع عشر، قامت ولاية بعد ولاية بإصدار القوانين التى تؤكد سرية الاقتراع، وإلى حملات الإعلام اللاحزبية التى قامت بها «منظمة صاحبات الأصوات» فى عشرينيات القرن العشرين، أصبحت

فكرة هى أن على الناخبين أن يعرفوا القضايا وأن يختاروا بين المرشحين دون اعتبار لانتماءاتهم الحزبية. لم تُستبعد هذه الفكرة منذ ذاك الحين.

فى هذا المجال، صحافة الجمهور هى امتداد مثالى للتقدمية. التقدمية كانت تعمل بإخلاص لكى يشارك الجمهور بعقلانية فى العملية الديموقراطية. تعزيزها للاقتراع السرى رفع من قدر فكرة الناخب العقلانى المطلع. بتعزيزها للمبادرة، والاستفتاء، وانتخابات الرئاسة الأولية، والانتخاب المباشر لأعضاء الكونجرس، وحكومات ـ المدن اللاـ حزبية، قامت بتأييد حكومة علمية ومشاركة جماهيرية عريضة ضد تدخل وشوشرة الأحزاب السياسية. صحافة الجمهور تبدو أنها تتوافق كثيرًا مع هذه التطورات. وتتوافق أيضًا مع التقدمية، إنها تتحدث عن مشاركة الجمهور وتشجع نقاش الجمهور. ولكنها تخاطب مجموعة من المهنيين فى جهود تحقيق هذه الأهداف. إنها تناشد الصفوة والجمهور معًا، تمامًا كما تفعل التقدمية.

فى هذا يكمن تحفظ صحافة الجمهور: إنها توجه دعوتها إلى الرغبة الطيبة وأحاسيس الديموقراطية لدى المهنيين بدلاً من أن تتحدث بنفسها إلى الجمهور من فوق رءوس المهنيين. صحافة الجمهور تخطئ فهم نفسها إذا اعتقدت أنها تأخذ جانب چون ديوى فى التبادل الشهير بين ديوى، فيلسوف ومعلم، وبين الصحفى والتر ليبمان فى عشرينيات القرن العشرين [١٧]. هناك اتجاه فى حركة صحافة الجمهور إلى إساءة فهم ليبمان وديوى، والذى يمكن غفرانه، ولكنها، فى الوقت نفسه، تبالغ فى أصالتها، والذى قد يصبح خطأ أكثر جسامة. المدافعون عن صحافة الجمهور يقولون إن ليبمان كان يؤكد ضرورة قيام «خبراء مدربين بإدارة صحافة الدولة وشئون حكومتها كذلك» [١٨]. فى الحقيقة، ليبمان لم يكن لديه مثل هذا الأمل فى الصحافة: هو يعتقد أن الصحفيين لن يستطيعوا أبدًا أن يُصلحوا أنفسهم. قد تتحسن أوضاعهم إذا ما برزت وكالات أخرى للإعلام من خارج الصحافة وقامت بتغذية الصحافة ببيانات أفضل. كان يأمل أن تقوم وكالات الإعلام هذه بتحسين نوعية إعلام الجمهور.

وافق ديوى على جدل ليبمان حول «رأى عام» يقول إن المجتمع الحديث قام بتقويض نوعية حياة المجتمع التى كان فيها للمواطنين فرصة لكى يصبحوا مؤهلين معرفيًا لحكم ديموقراطى. ليبمان وديوى اختلفا حول ما يجب أن يُعمل لإنقاذ

الديموقراطية من التدمير الذى يسببه الازدهار المتزايد لمجتمع قومى حضرى صناعى. أصرَّ ليبمان على أن الجماهير لا تستطيع أن تحكم مجتمعًا كبيرًا، ولكن الخبراء الذين ينصحون الرسميين المنتخبين يمكن ائتمانهم على معظم القرارات اليومية لحياة الجمهور. ديوى، رغم أنه مدافع لا يكل عن العلوم، عبّر عن شكّه فى إمكان الثقة بالخبراء أكثر من الثقة بأى مجموعة أخرى من الصفوة، وأنه لا يزال يأمل فى إعادة تنشيط حياة المجتمع (رغم أنه لم يقدم أى إيضاح عن أرضية هذا الأمل). لم يقل ليبمان ولا ديوى أى شىء فى مواجهتهما قد يشجع رأيًا يقول إن الصحفيين يجب أن يعملوا كوكلاء للمجتمع لتحويل أو بناء المجتمع.

تجد صحافة الجمهور أن الخبرة محرجة تمامًا. إنها تخول الصحفيين جميع السلطات على الأخبار. ثم تستدير وتنكر أن الصحفيين يمكن أو يجب، أن يكون لديهم فهمًا خاصًا لاحتياجات الديموقراطية. هذا على الأقل، هو مؤشر عن الارتباك فى نظرية صحافة الجمهور. وقد تكون أيضًا فشلاً فى الجدية الفكرية. الخبرة لا يجب أن تكون شيئًا يخفى. الخبرة ليست انتهاكًا للديموقراطية، بل هى السلطة الشرعية الوحيدة فى الديموقراطية، باستثناء إرادة الشعب نفسه. ولا يمكن لكل إنسان أن يتطلع لأن يكون من دم ملكى، ولكن كل إنسان يستطيع فى ديموقراطية تعمل بكفاءة، أن يتطلع لأن يكون طبيبًا أو محاميًا، أو روحًا فقيرة، صحفيًا. ولكن، أين توجد سلطة الصحفى ؟

الصحافة التقليدية متحيِّرة حول سلطتها الذاتية. الصحفيون قد يؤكدون لك فى إحدى اللحظات أنهم مركبات محايدة لنقل المعلومات، بدون أى سيطرة عليها خلاف أمانتهم هم ؛ وقد يوضحون لك فى اللحظة التالية أن المعرفة العامة عن العالم التى اكتسبوها بمشقة، تزيد بريقًا عن دراسة الكتب الأكاديمية. يوجد انفعال مفهوم هنا عندما يتوقع الصحفى تكبر الأكاديمى الفج الذى يتعالى على «الصحافة» باعتبارها سلالة سفلية للمعرفة. ولكن، يوجد أيضًا ممانعة عميقة فى التفكير حول الأسس التى يبنى عليها الصحفى اختيار القصص الإخبارية، ووضع سياسات الأخبار، ومتابعة بعض الموضوعات دون الأخرى، والبحث عن مصادر إضافية أحيانا، وليس دائما. كيف يفعل الصحفيون كل هذا؟ ليس أمرًا مفصلاً، ولم توجد لذلك أى نظريات بين من يقومون بتدريس الصحافة، أو بين من يمارسونها. مصدر خبرة الصحفيين ليس موضوعًا لدراسة واسعة. ناقد صريح لصحافة

الجمهور، داڤيد ريمنيك، اعترف أنه «لا توجد مجموعة مؤسسات أمريكية تجمع بين قوة أكبر وبين نقد ذاتى أقل، من مؤسسات وسائل الإعلام» (١٩).

تحث صحافة الجمهور الصحفيين على إعادة التفكير حول الممارسات التقليدية والافتراضات، يضايق هذا الصحفيين التقليديين. أكثر من هذا، صحافة الجمهور تندفع إلى ما بعد العالم الذى للصحفيين فيه نوع من السلطة الشرعية. أيًا كانت السلطة التى لدى الصحفيين، هى لن تقع فى نطاق تنظيم للمجتمع أو وساطة فى صراع. إذن، لماذا تقوم جريدة «شارلوت أو بزيرڤر» بعقد اجتماعات داخل المدن لمناقشة مشاكل الأعراق والعنصرية ؟ ولماذا تقوم جريدة هنتنجتون «هيرالد هوالد ديسپاتش»، ڤيرچينيا الغربية، بتعبئة المتطوعين لقوات عمل التطور الاقتصادى؟(٢٠). هل لها أن تقوم بمثل هذه الأنشطة لتحريك الصحفيين من جمع الأخبار إلى صحافة الرأى ؟

وهكذا، إذن، عندما تطلب صحافة الجمهور من مؤسسات الأخبار أن تقوم بإصلاح المجتمع وإعادة اكتشاف الجمهور، يصبح لدى الصحفيين التقليديين مبرر أن يسألوهم : من الذى انتخبكم؟ الصحفى مايكل كيلى سأل هذا السؤال عندما قام بمراجعة سجل صحافة الجمهور فى حملة انتخابات أعضاء مجلس الشيوخ فى كارولينا الشمالية عام ١٩٩٦م. جريدة «شارلوت أو بزيرڤر» وأنواع شتى أخرى من وسائل الإعلام قررت، من خلال جهود اقتراع ذاتية، طبيعة القضايا التى يهتم بها الجمهور. قاموا بعد ذلك بسؤال المتحدى الديموقراطى، هارفى جرانت عضو مجلس الشيوخ الجمهورى چيسى هيلز، حول تلك القضايا. انتهى مايكل كيلى إلى أن هذا كان «خداعًا». عندما يقوم صحفيو صحافة الجمهور بإجراء اقتراع ويطلبون من جماعات تركيز أن تضع «برنامجًا عامًا» بدلاً من ترك المرشحين السياسيين لكى يقرروا البرنامج العام بأنفسهم، هم يعززون بذلك فكرة الخداع فى أن «مجموعة من الصحفيين والمحررين التى اختارت نفسها، يمكن لها ـ أو يجب عليها ـ أن تقرر الموضوعات الصالحة للنقاش فى انتخابات عامة». هذه هى «محاولة لتعزيز قوة طبقة صحفية علميًا. بإملاء طبيعة الموضوعات الصالحة أو غير الصالحة للنقاش العام، والأسباب الصحيحة لاختيار مرشح بدلاً من الآخر». هذا يعنى أن يلعب الصحفى دور «إله الانتخابات» (٢١).

عدم كفاية تلك الاستجابة، مع ذلك، يجب أن تكون واضحة : من الذى انتخب الصحفيين التقليديين ؟ من الذى انتخب مايكل كيلى ؟ كيف يمكن لصحفى أن يلعب مراراً دور «إله الانتخاب» بدون تشاور مع الجمهور أن يسلم رغم فعلته ؟ ما عملية الفكر الديموقراطى التى أدت إلى تقاليد أخبار وسائل الإعلام التى تركز على الصراع وعلى تغطية تركز على الاستراتيچية والتكتيك ؟ ما العملية الديموقراطية التى جعلت الصحف تتابع فرق كرة القدم المحلية بانتظام أكبر وإحساس تاريخى أقوى مما تتابع به السياسة المحلية ؟ أو ما الذى جعل أخبار التليفزيون المحلى تغلق نفسها على نموذج السوق ؟ أما عن الأثوار الرئيسية فى «بيت الصحافة (هاوس أوف چورناليزم)» التى كانت أعلى صوتًا ينقد صحافة الجمهور، لا أحد يعرف أى شىء عن إنتاج صحيفة يومية يستطيع أن ينكر أن نيويورك تايمز وواشنطن پوست هما إنجاز رائع، يومًا بعد يوم. (ومجلة نيويوركار أسبوعًا بعد أسبوع). أما بالنسبة لقيام محرريها بالهجوم على صحافة الجمهور من هذا العلو فإنه يشبه الإعلان أن جهود الإصلاح الذى يقوم بها التعليم الأعلى هى خارج الحدود وحتى خريجى جامعة هارڤارد تفعل ذلك بنجاح تام فشكرًا. وحتى الهارڤارديون، فى التعليم الأعلى أو فى الصحافة يمكن أن يكونوا موضوع مراجعة ـ ذاتية جادة.

من الذى انتخبكم ؟ صحافة الجمهور تجيب : لقد انتخبنا جميعًا عندما فشلت الديموقراطية. لقد انتخبنا جميعا لأن نكون مواطنين. الصحفيون بالتأكيد يجب أن يكونوا راغبين فى إعادة تنظيم قواعد وعادات عملهم إذا ما أصبحت غير ملائمة، أو معارضة لهدف إنجاح الديموقراطية. هل هذه الاستجابة كافية ؟

صحافة الجمهور والجماعات والحياة العامة

حثت صحافة الجمهور چون دوى على أن يؤمن بأن حياة جماعية قوية هى أمر ضرورى للديموقراطية. لسوء الحظ فشل هذا الإيمان للوصول إلى ما هو أبعد فى ديوى، فى تطوير رؤية لما يجب أن تكون عليه الجماعة أواخر تسعينيات القرن العشرين، وليس فى أواخر عشرينيات القرن الماضى لم يكن هذا عصراً يمكن أن تحكمه اجتماعات بلدة نيو إنجلاند، ولكن هناك نصوصٌ كثيرة فى صحافة

الجمهور عن أهمية تقليد اجتماع البلدة كنموذج صالح للوقت الحاضر. فى اجتماعات بلدة نيوإنجلاند فى القرن السابع عشر، والثامن عشر، كان نتاج التصويت ضئيلاً، وكان من يضع البرنامج هم الصفوة الذين كانوا يسيطرون على الإجراءات، ويعبسون فى وجه النقاش، ويعتبرون الصدام غير لائق ـ وشارك كل إنسان واجب أن يكون لدى الجميع نفس العرق ونفس الديانة (٢٢).

لقد نقلت نصوصًا كثيرة عن أليكس دى توكفيل عن ميزات فن المشاركة الأمريكى للفنون، ولكن توجد إشارة ضئيلة إلى أن توكفيل وجد أن الأحزاب السياسية عذبت المواطنين فى هذه الفنون، دون أى جهد جاد لتمييز ما تعتبره صحافة الجمهور حياة تعاونية غنية، عما ينظر إليه على أنه تزييف فاسد فى هذه الحياة وهو جماعات المصالح. «عندما تظهر جماعات المصالح على المسرح»، كتب جيمس كارى، «ينعدم الوجود الحقيقى للجمهور»(٢٣). جورج واشنطن كان يمكن أن يتفق معه. عارض واشنطن تنظيم اتحادات خاصة على أساس دائم لمناقشة السياسة (انظر معارضته للمجتمعات الديموقراطية ـ الجمهورية أثناء «ثورة الويسكى» والتى تكررت ثانية فى خطاب وداعه). ولكن توكفيل، رفض هذا الرأى ورأى أن قيام الناس بتنظيم اتحادات لمتابعة مصالحهم الذاتية، يفهم صحيحًا، باعتباره قوة الديموقراطية الأمريكية.

ولكن، ما علاقة أى شىء من هذا مع الحاضر؟ كيف، مثلاً، قامت صحافة الجمهور ببناء مجتمعها الذاتى؟ لقد بدأت من خلال عدم الرضاء عن الصحافة المعاصرة. عدم الرضاء هذا لم يكن فقط بين صفوف الصحفيين وأساتذة الصحافة، بل أيضًا فى المؤسسات وفى أحاديث مؤتمرات مؤسسات الصحافة القومية. رابطة المؤسسات التى هى صحافة الجمهور الآن، التى تحفز، وتوجه، وتشجع الجهود المحلية فى صحافة الجمهور، أصبح وجودها ممكنًا من خلال مساهمات الفنادق، وشركات الطيران التجارية، والمؤسسات، ومدارس الصحافة، والمؤسسات الأخرى التى تساند الصحافة مثل معهد پوينتار، وغيرها. مع ذلك، لم تحاول أىّ منها أن تضع نظرية لمجتمع صحافة الجمهور. يبدو أن المجتمع يستحضر فقط المؤسسات التى لها جذور شعبية محلية.

حياة المواجهة فى الجماعة الآن، كما كانت فى أغلب الأحيان، تشجع من أعلى

إلى أسفل بقدر ما نشأت لحظيّا من القاع إلى أعلى. حافز نشاط الجماعة كثيراً ما يبدأ من خارج الحياة اليومية للجماعات. حركة المرأة فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين لم تتدفق ببساطة من القاع إلى أعلى، بل أثارتها ـ أو يمكنك القول «سببتها» مؤثرات خارجية، خاصة بيتى فريدان التى كتبت «غموض الأنثى». مكتب المرأة الفيدرالى، ولجان الولايات واللجان المحلية عن وضع المرأة، غذت بنشاط حركة المرأة فى أمريكا[٢٤]. «المؤسسة القومية للمرأة» نشأت من خلال الغضب من أن البند السابع من «قانون الحقوق المدنية» لم يتم تنفيذه بصرامة. كانت تنشد الاستفادة من الفرص المتاحة نتيجة الإحياء العربى لقانون الحقوق المدنية عرضيّا[٢٥]. هذه حالة قامت فيها الحياة العامة ببناء المجتمعات، بدلاً من أن تقوم المجتمعات بتقديم الأرضية اللازمة للحياة العامة. التحليل للناس الذى قدمته صحافة الجمهور عن أخطاء التغطية التقليدية للأخبار، لم يماثله تحليل متقن نسبيّا عن سمات الجماعة المعاصرة والحياة العامة.

تميل صحافة الجمهور إلى إثارة ـ كما فعل چون ديوى نفسه ـ ما أطلق عليه تعبير «جوار الحنين إلى الماضى»، العالم المستقر، الأمن العائلى الذى يرجع إلى (فى الوطن الأصلى) مكان ما بين جيران العرق المهاجر فى أوائل القرن العشرين، أو فى المجتمعات التى استوطنت المدن فى القرن التاسع عشر[٢٦]. ولكن حياة الحضر لم تكن كما هى عليه الآن. رغم أن دخول أهل الحضر كانت ضئيلة، كانت تربطهم، مع ذلك، علاقات حميمة تمتد عبر المدينة. قرب أماكن أهل الجوار يؤدى عادة إلى تماسك اجتماعى ضعيف نسبيّا، وجدت دراسة عن أهل الجوار فى شيكاجو أن ٢٧٪ من المقيمين ينتمون إلى مؤسسات تطوعية، ولكن أقل من نصف هؤلاء المواطنين ينتمون إلى مؤسسات اجتمعت فى أماكن الجوار[٢٧].

فكرة صحافة الجمهور عن الجماعة على الرغم أنه مسألة ليس من السهل إيضاحها إلا أنها تتضمن الاقتراحات التالية:

أولاً: الجوار هو مجتمع والمجتمع هو إقليم. وكثيراً ما تعرف لغة صحافة الجمهور المجتمع بالجوار أو المناطق المجاورة.

ثانيًا: الحكومة تقع خارج هذا المجتمع. و ليست جزءاً منه وليست حافزاً له أو معبراً عنه أو حتى ليست منبراً لصوت المجتمع. وهناك تلميحات متكررة فى ثقافة

صحافة الجمهور بأن على الناس أن يأخذوا القرارات بأيديهم بدلاً من أن يتركوا صناعة القرار للحكومة. وكتب روزرن أن هدف «مشروع الشعب» فى إصدارة ويشيتا إيجل «لإقناع ويشينا» أنه على الأقل، هناك بعض المشاكل العامة، يمكن التعامل معها، وليس بالضرورة من خلال الحكومة. وطبقًا لذلك، كان العنوان الفرعى للمشروع (حل مشاكلنا بأنفسنا)[٢٨].

الحكومة من خلال هذه اللغة ليست هى صوت الناس، ولكنها عضو من البيروقراطيين أو الصفوة أو أى شىء أو شخص مفصول عن حياة المجتمع.

ثالثًا: المجتمع والحياة العامة هما مثاليات عليا مستمرة متناغمة، وليست متصارعة.

إذا كان هذا عرضًا طيبًا لافتراضات صحافة الجمهور المعلنة وغير المعلنة حول الجماعة، كان على صحافة الجمهور إذن أن تقوم بشىء من إعادة التفكير الجاد. نقاش يمكن أن يُطرح أن أهل الجوار هم ليسوا جماعة، وأن الجماعة والحكومة قد يكونا متكاملين بدلاً من متناقضين، وأن الجماعة و«الجمهور» قد يُفهمان أفضل كمتضادين بدلاً من توأمين. دعنى أصور سريعًا هذا النقاش:

أولا: أهل الجوار ليسوا جماعة: الناس لا يعيشون الآن فى جوار. برتراند راسل قال هذا مبكرًا منذ عام ١٩٣٠م. فكرة أن الناس يجب أن يعرفوا جيرانهم، كتب يقول، «ماتت فى مراكز السكان الكبيرة»، وأصبحت، فى الحقيقة «فكرة سخيفة، حيث لا توجد حاجة للاعتماد على الجيران المباشرين من أجل مجتمع»[٢٩]. ربما كان أهل الجوار يتناقصون منذ زمن طويل. بالتأكيد، مؤرخو أمريكا يشكون أن أهل الجوار المستقرين كانوا أكثر شيوعًا فى مدن القرن التاسع عشر أكثر مما هم عليه فى الأزمنة الحديثة [٣٠].

هناك بينة فى السنوات الحديثة أن استقرار أهل الجوار والتزامهم، كان يتزايد فى أمريكا، لا يتناقص. التحرك الجغرافى أقل قليلاً مما كان عليه فى الماضى، وملكية المساكن أصبحت أعلى، واهتمام الأفراد بأهل الجوار فى أمريكا أكبر مما هو عليه فى السويد والمملكة المتحدة [٣١]. الأمريكيون تبدو لهم «جذور عميقة، عملية وعاطفية، مع مجتمعاتهم أكثر من قبل» [٣٢]. ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فإنه - جزئيًا - لأن مؤسسات ليست فى أهل الجوار، بما فى ذلك الحكومة، ساعدت على

جعله كذلك. الجيرة نفسها يمكن الحفاظ عليها من خلال مساندة مؤسسات أخرى. مؤسسات الجماعة كثيراً ما تتبناها وكالات من الخارج ـ حكومات المدينة أو الولاية، والبنوك، وشركات التأمين ـ وتحتاج إليها لكى تكون «قنوات اتصال، ومصادر للشرعية، ومركبات للتنظيم الاجتماعى للسيطرة الاجتماعية، ووسائل لتنظيم وإدارة المصادر» (٣٣).

ثانيًا: هذا يتحدث عن نقطتى الثانية: الحكومة والمجتمع قد يكونان متكاملين وليسا متضادين. صحافة الجمهور، من خلال موقفها المتحفظ تجاه الحكومة، قد تقوم، بغير قصد، بتعزيز نفس التشكك حول الحكومة التى ترى هى أنه مؤشر على الانحدار وخيبة الأمل.

ثالثًا: مساندة «الجماعة» ومساندة «الحياة العامة»، هما ليسا الشىء نفسه. هذه صعوبة رئيسية فى النقاش المعاصر حول المجتمع المدنى والحياة العامة. قصة أرواحنا، كتب چيمس كارى أنه «جزء من قصة المجتمع العام، مجتمع الجنسية العامة بدلاً من الجنسية المقصورة على الطبقة أو العرق أو النوع. إلخ»، وهى كذلك «مدمجة فى مجتمعات من الهوية الخاصة مثل الأسرة والمدينة والقبيلة والأمة والحزب أو القضية». هنا قام كارى بتوضيح المشكلة بدقة تامة. ولكنه بعد ذلك، مباشرة تقريبًا، أنزل جماعة عامة المواطنين إلى مرتبة ثانوية بعد المجتمعات الأغنى والأكثر دفئًا التى لها هويات خاصة. بالنسبة له، «توسع حقوق الأفراد وتآكل الهويات العامة، ونمو التوكيل (فى المسئوليات العامة) وتآكل الرأى العام» لم تكن «وصفة لتقدم المجتمع» (٣٤).

توسع حقوق الأفراد قد لا يكون «وصفة» لتقدم المجتمع بدون تكاليف، ولكنه كان الأقرب إلى أسلوب تقدم المجتمع الذى استطاعت أمريكا أن تبتكره. «الهويات العامة» وكذلك «الأحكام العامة» فى تقاليد أمريكا كانتا دائمًا استثنائيتين ـ مسيحى (پروتستانتى)، ذكر أبيض، أنجلو ـ ساكسون، صاحب أملاك. قد أقول «تحرير كامل» لمعظم الهويات العامة والآراء العامة التى فقدناها. مرحبًا بإنسان واحد، وصوت واحد، وتحرير كامل من قبضة الريف على مشرعى الولاية، وترحيب بإلغاء التمييز العنصرى وتحرير كامل لـ «چيم كرو» ومرحبًا لقضية جريسولد ضد ولاية كونيكتيكت، ومرحبًا بحق الخصوصية وحق المرأة فى اختيار الإجهاض، و«تحرير كامل» للأحكام العامة التى تؤسس قيم المجتمع. بمساندة من القانون ـ فى حياة الأمريكيين.

كارى يتوافق هنا مع مفكرى الجماعة، وآراء صحافة الجمهور تميل أيضًا إلى هذا الاتجاه. ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يصبح جماعيًا (بدلاً من تحرريًا) ومدافعًا عن صالح الجمهور وهو يعرف أنه، عمليًا، يتم تعريف ما هو «صالح» من خلال نظرة محدودة ـ بمعنى أنه يُعتبر صالحًا من وجهة نظر دين معين، أو طبقة، أو عرق؟ نفس فكرة الحضرية والمدنية التى تصاحبها (لم تكن أبدًا المدنية مثالية فى مجتمع صغير، إنما فقط الأدب فى سياق الاحترام، والهرمية، والنظام)، كانت تتعارض بشدة مع حدود حياة الجماعة التقليدية.

هذا يستحق التأكيد عليه فى المناخ الفكرى المعاصر. ثم تعريف المدنية تاريخيًا من خلال التحرر من الريفية والقبلية، نموذج من التجربة الإنسانية تقوم فيها أساليب حياة مختلفة وأنواع متباينة من الأفراد بالتعايش معًا[٣٥]. المدنية، من وجهة النظر هذه، هى «مجموعة من بنايات اجتماعية تقوم بتشجيع الفردية الاجتماعية والاختراع، وتصبح بذلك أداة تقوم بتغيير التاريخ» [٣٦]. فى حياة المدنية، طبقًا للوصف الشهير الذى قدمه چورچ سيميل، الشخص «حر بمعنى روحى ونقى، بالتباين مع التفاهة والتعصب المحيطين برجل البلدة الصغيرة»[٣٧]. ما يشجع الحرية الفردية ويعزز التسامح مع التنوع الاجتماعى، يقوم أيضًا بإضعاف روابط المجتمع التقليدية. المجتمعات أصبحت تشبه كثيرًا «جماعات المصالح»، وأقل شبهًا مع المجتمعات التى ترتبط بالأرض فى حياة الريف الماضية.

ما المفترض أن تقوم صحافة الجمهور بتحسينه؟ هل هو الجماعة؟ هل هو نقاش عام صحى؟ هل هو السيادة العامة؟ ما الذى يجعل صحافة الجمهور تعتقد أن هذه الأمور متناغمة وليست متحاربة؟ بالمقارنة مع الولايات المتحدة، السويد لديها احتياطات سخية للرخاء، ولكن لديها أيضًا روابط ضئيلة مع الجيران ومستويات عالية من ممارسة العزلة [٣٨]. توماس بندار، عندما أثار الشك حول الرأى الشائع بأن المجتمعات تتحرك من «جماعة» إلى «مجتمع» لا شخصى، يجادل بأن الجماعة والمجتمع هما نموذجان فى تجربة الإنسان للتعايش. هما ليسا بالضرورة (ولا يمكنهما) أن يكونا نفس الشىء. «حياة جمهورنا لم تقدم تجربة عن الجماعة. تبادل المنفعة والعواطف التى تميز المجتمع المحلى لا يمكن، ولا وليست هناك حاجة، لأن يتم تحقيقها بين الجمهور». تنتمى السياسة إلى عالم الجمهور،

وليس الجماعة. الضرورى فى الحياة السياسية هو «الإحساس بالصالح العام وليس صالح الجماعة» (٣٩).

المعجبون بقواعد السياسة الليبرالية، مثلى أنا، يميلون إلى عدم الإجابة عن التساؤل حول الكيفية التى يمكن بها ربط الناس فى جماعاتهم إلى الإحساس بالالتزام بما قد يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك. المعجبون بالجماعة مثل بعض من يدافعون عن صحافة الجمهور، يميلون إلى عدم الاهتمام بما قد يحدث عندما تتصادم قيم المجتمع المحلى، أو إلى أى مدى يمكن التسامح فى قيم الجماعة غير الليبرالية بين الجمهور. (هل التمييز العنصرى صالح عندما كان تقليداً لأجيال عدة ؟ أو هل القوانين المعارضة للشذوذ مقبولة عندما عبرت عن قيم شائعة فى المجتمع المحلى ؟). قد يكون كارى على حق عندما قال إن الليبرالية بحد ذاتها ليست وصفة طيبة لتقدم المجتمع، ولكن ليست أيضًا الجماعة ولا المشاركة الديموقراطية بحد ذاتها.

لا توجد لدينا وصفات لتحقيق الإحساس بالصالح العام، الإرشاد الذى لدينا من تجاربنا الماضية يوضح أن الحياة العامة ينشطها أحيانًا حافز أخلاقى (خاصة فى زمن الحرب)، وكثيراً ما تكون مثيرة للنزاع، وبغيضة، ومستنزفة، وغير مرضية، وتافهة، يميزها الحلول الوسط والمساومة. تفاعلات المجتمع المتبادلة الدافئة البهيجة الممتدة لعواطف الحب، والصداقة، وتنوع صلات القرابة، من المحتمل ممارستها فى الجماعات أكثر من الحياة العامة. القضية فى الحياة العامة هى الامتداد خلال الجماعات التى تحكمها الثقة والشعور، إلى معالجة المشاكل بين أناس يشتركون فى قليل من القيم، وقليل من الثقة، مع شعور بالقلق والعداوة.

الجماعات ليست جماهير. الجماهير هى حيث يجتمع الغرباء لتقدير وبناء حياة مشتركة فى ظل قواعد تعاملهم جميعًا على قدم المساواة. صحافة الجمهور يمكن أن تُسْهم فى الحياة العامة. مع آلامها المتزايدة، هيس لا زالت أعظم تطور جاد وذكى للصحافة منذ عقود. ولكن صحافة الجمهور يمكن أن تُسْهم أكثر إذا ما غرست بعمق أكثر فى وجدان الحياة الحديثة. إنها تحتاج إلى مناشدات أقل، إلى مستعمرة نيوإنجلاند مع رؤى النظام الأخلاقى الهرمى، الذى فقدناه منذ مدة طويلة، والذى تحفظ جذوره بقوة فى تجانس قيم وأنماط الحياة. إنها تحتاج إلى فهم أكثر لطبيعة الحياة فى الجماعة وطبيعة الحياة العامة، والتى يريد الإنسان حقّا أن يحققها فى المجتمع المعاصر.